

الموروث التداولي في الفكر اللغوي العربي

لابد أن ننبه في هذا المقام منبهين أن اللغة شديدة التعقيد تتطلب العديد من المناهج و ذلك للوصول لفهم، و فكّ شفراتها وتحليل محتوياتها، ومعرفة مقاصدها، ولا يتسنى لمنهج واحد أن يقف عند هذه الحدود، و خصائصها وصفاتها و التسلح بالأدوات الإجرائية لتفسير ظواهرها تفسيراً واضحاً ومن ثمّ راح اللغويون يقسمونها إلى عدّة مستوياتٍ ليتمكّنوا من كشف محتوياتها وإظهار أسرارها ومعرفة مضمونها. وقد سلكوا في ذلك مناهج متعدّدة يهدف كلّ منها إلى وضع تفسيرٍ دقيقٍ لظواهر اللّغة، غايتهم معرفة مقاصدها فأعادوا بذلك الاعتبار للدراسات البلاغية و الأسلوبية.

إن الذي يستقرئ التراث العربي المعاصر يدرك أن مفهوم التداولية عرف العديد من المصطلحات منهم من وظف مصطلح الذرائعية، والإستعمالية، والتخاطبية، والنفعية، والتبادلية. وكل هذه المصطلحات تشيع بين الدارسين في ميدان البحث اللغوي لأنه يشير للتفاعل والحوار والتخاطب والتواصل والتداول).

ويحاول بن عيسى ازابط بعد استقراره للمفهوم الخروج بتعريف يقرب بين مختلف هذه التعريفات قائلاً: التداولية دراسة لظواهر الخطاب وتفسير لبنياته في ضوء الاستعمال والوظائف. وهو تعريف يلبي شروط التكامل بين ظواهر الخطاب وتقويم البنيات والمعنى كعناصر داخلية، وبين الاستعمال والوظائف والانجاز والسياق... كعناصر خارجية، كما يلبي شرط التفاعل والتداخل بين هذه العناصر المشكلة للأسس التداولية¹.

فالمفهوم يعبر عن التواصل بين المتخاطبين والتفاعل فيما بينهم، وهذا ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بالممارسات التراثية، و المتصفح لكتب البلاغة على سبيل المثال كالبيان و التبيين ومفتاح العلوم، و دلائل الإعجاز يلمس ذلك الاهتمام بالمتكلم و المخاطب ووضعيتهما، و الظروف المحيطة بالعملية التواصلية².

وقد ركز الدرس اللغوي على دراسة معاني الألفاظ حيث يتم دراسة الألفاظ في سياقاتها، مفرقا بين الدلالة وصورتها كما هو مسجل في كتابات الجرجاني وموقفه من تمييز اللفظ عن المعنى، و إعطاء الأولوية للمعنى في السياق لا للكلمة في ذاتها؛ يقول:

" والذي له صاروا كذلك أنهم حين رأوهم يُفردون) اللفظ (عن) المعنى ("....ويجعلون له حُسناً على حدة، ورأوهم قد قسموا الشعر فقالوا: إن منه ما حسن لفظه ومعناه، ومنه ما

دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعيد البازعي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1995، ص 89¹
لمزيد من التوسع ينظر: صابر الحباشة: كتاب، التداولية والحجاج: مداخل ونصوص، ط 1، سوريا- دمشق، 2008.²

حسن لفظه دون معناه، ومنه ما حسن معناه دون لفظه. ظنوا أن للفظ من حيث هو لفظ حُسنا ومزِيَّة ونبلا وشرفا وأن الأوصاف التي نحلوه إياها هي أوصافه على الصحة، وذهبوا عما قدمنا شرحه من أن ذلك رأيا وتدبيراً، وهو أن يفصلوا بين المعنى الذي هو الغرضُ وبين) الصورة (التي يخرجُ فيها فنسبوا ما كانَ منَ الحُسْنِ والمزِيَّةِ في صورة المعنى إلى اللفظ³.

إن جمالية التلقي في كتب البلاغة و النقد إنما تعتمد على الذاتية و لكن لا تكفي بذلك بل تتعدى إلى إشراك فعل الفهم لدى المتلقين، ومدى قدرتهم العقلية الواعية مع استثمار كل المرجعيات التي من شأنها تنشيط عملية التفاعل مع مختلف النصوص، وحتى يتجاوز البحث التداولي هذه الحدود ليصير نظرية عامة، ويصير أيضا الفعل التداولي نشاطا لغويا لابد من دراسة اللغة في حالاتها الوظيفية، وعلاقتها بالأبعاد الجمالية، والأثر الذي يصاحب التخاطب شعرا، ونثرا.

لقد تفتن علماءنا بحسهم اللغوي المرهف أن مهام البحث، و الفكر التداولي يقوم على دراسة الخطاب عند استعماله في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتباره كلاما محدد يصدر من متحدث محدد، وموجَّها إلى مخاطب محدد بلفظ محدد في مقام تواصل محدد لتحقيق غرض تواصل محدد.

لقد أولى المتخصصون في التراث العربي عناية كبيرة بما يعرف بالمقام أو السياق الخارجي في توجيه النصوص و تفسيرها معتمدين على النص القرآني أنموذجا لهم في تخريج أحكامه الفقهية، و الشرعية فكان لأسباب النزول التي تتعلق بالآية الكريمة الحظ الأوفر في مصنفاتهم و معاجمهم اللغوية. فكان للسياق الخارجي الإجراء الذي على ضوئه تفسر المعاني⁴.

وإذا كان هذا التوجه يقوم على الدراسة الشكلية، و دلالتها في السياق فقد تحولت ملامح المنهج من الدراسة الوصفية الساكنة إلى التوجه التأثيري، أي من العلاقة بين الألفاظ إلى العلاقة بين الألفاظ و المستعملين. ففي باب الاستقامة من الكلام و الإحالة يقسم سيبويه الكلام إلى:

-المستقيم الحسن أتيتك أمس

-المحال: أتيتك غدا

³ دلائل الإعجاز، تح، محمود شاکر، دار المدني، 1992، ص 393/392

-آفاق جديدة في البحث اللغوي، أحمد محمود نحلة، دار المعرفة، مصر، 2006، ص 94

-المستقيم الكذب : حملت الجبل

-المستقيم القبيح:قد زيدا رأيت

المحال الكذب. سوف أشرب ماء البحر⁵.

من خلال هذا التفريع يمكن اعتبار الاستعمال الذي هو خارج النص اللغوي أي أن الاستعمال لم يحكم على العصر الثاني بصدق أو كذب لأنه لا يوجد له دلالة في الاستعمال اللهم إذا خرج لباب السخرية و الدعابة. و هو ما يتعارف عليه في بالحن التداولي عند مقبول إدريس. فاللحن لم يكن على مستويات الصوت والصرف و التركيب و الدلالة إنما كان على مستوى التداول.

والملاحظ أن ابن جني أدرك علاقة اللغة بالاستعمال التداولي من منطلق أن اللغة تعبير عن الأغراض⁶ ، فكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبها و انتشار أبحاثها بها مجرى خطابهم و ما يألّفونه و يعتادونه منها ، و فهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم و عاداتهم في استعمالها.

وكذا نلمس الحس التداولي ، و الممارسة التواصلية في الكتاب القيم منهاج البلغاء وسراج الأدباء لصاحبه حازم القرطاجني عند خصص بابا أسماه "معلم دال على طرق العلم بما ينقسم إليه الشعر بحسب اختلافات أنحاء التخاطب قائلا:

"... لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب، أو الاستفادة منه، إما بأن يلقي إليه لفظا يدل المخاطب إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وإما بأن يلقي إليه لفظا يدل على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بالفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وكان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بينا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون متشكلا فيؤدى على جهات من التفصيل والبيان والاستدلال عليه والاحتجاج ،له فكلام المتكلم فيما يؤديه قسمان: قسم يقع فيه الاستدلال، وقسم الاستدلال فيه وكلامه فيما يقتضيه من المخاطب قسم واحد في أكثر الأمر؛ لأن الإجابة بالاستدلال أو عدمها في ذلك للمخاطب. وليس ذلك من كلام المتكلم إلا أن يحكي ما دار بينه وبين مخاطبه، فيكون ذلك كالتركيب من القسمين، وليس به على أحد الحقيقة لكون ذلك ليس من كلام واحد⁷.

يقول في موضع آخر في منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،كيف يظنُّ إنسانٌ أنَّ صناعة البلاغة يتأتَّى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل إلى نهايته مع استفاد

-الكتاب 1/ 25⁵

- الخصائص،، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1989م، 1/ 100⁶

منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تح،محمد الحبيب بن خوجة،الدار العربية،تونس، 1997،ص261-262.⁷

الأعمار؟. فهي مفتاح فهم اللغة والخطاب، ب وصفها السكاكي على أنها مفتاح كل علوم العربية

وما يمكن تسجيله، و نحن نتحدث عن البعد التداولي عند البلاغيين العرب فإن البحث اللساني العربي جدير بإعادة النظر فيه وعلى وجه الخصوص عند حازم القرطاجني فملاح التداولية مبنوثة في ثنايا فصول الكتاب لأنها تتطابق و الدراسات اللسانية المعاصرة الغربية، وإلى ذلك أشار الشاطبي في الموافقات حيث يلخص توجهه التداولي في مقولته الشائعة: "...ومقصود الخطاب ليس في التفقه في العبارة، إنما التفقه في المعبر عنه، و المراد به"⁸.

ومن ملاح التداولية في التراث العربي ما نلمسه عند علماء التفسير في تأويلهم للنص القرآني حيث كانت ثقافتهم اللغوية من صوت، و صرف، ونحو، ودلالة هي المنطلق الأساس في تعاملهم مع النص فهي المقدمات كانت عبارة عن ثقافة كل مفسر ومدى هضمه للدرس اللغوي، وتطرقوا إلى معرفة أسباب النزول، وما هو مكي ومدني و ما نزل بالليل و النهار وغيرها من ملاح التداولية في الخطاب القرآني الذي فصل فيها السيوطي⁹.

تلك هي ملاح البحث التداولي أو المقاربة التداولية المبنوثة في ثنايا مصادرنا العربية التي تبلور حولها الدرس اللغوي العربي و الغربي، حاولنا باختصار أن نجعل أهم مباحث التي يصادفها الطالب أثناء دراسته للتراث العربي في بعده التداولي. و كنا قد حاولنا تلخيص أساسيات الدرس في تلك النقاط المشار و على المتخصص العودة للاستفادة و الاطلاع أكثر على ما يصبو إليه لأن تراثنا العربي لا يزال مادة بكر لكل النظريات اللسانية المعاصرة.

و في الأخير و للتفصيل أكثر أضع بين يدي الطالب مجموعة من الكتب التي عالجت الموروث التداولي في التراث النحوي، منها :

1-التداولية والسرد، جون - ك آدمز، ترجمة: خالد سهر، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد، 2009م،

2-منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية، معاذ بن سليمان الدخيل، نادي القصيم الأدبي، السعودية، 2014م

3-المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس، ص 137، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007

الموافقات، تح، أبو عبيدة مشهور بن حسن، القاهرة، 1997، ص312-8.
الاعتقان في علوم القرآن، تح، أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ص20-9

- 4-السيمائية وفلسفة اللغة، أمبرتو إيكو، ترجمة أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005م
- 5-البراغماتية وعلم التركيب، عثمان بن طالب، ضمن أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية، المطبعة العصرية تونس، 1985
- 6-المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2004.
- 7-الاقترضاء في التداول اللساني (بحث)، إدريس مقبول،، عالم الفكر، مج20، ع3، الكويت، 1989م
- 8-الأفعال الكلامية في سورة البقرة، الباحثة حليلة بو الريش، (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة الحاج لخضر، 2012م.
- 9- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، عالم المعرفة، عدد 164، 1992.